التفكير اللغوي في سيمياء الشعر

عند ميشال ريفاتير

د. رزيق بوزغابة
جامعة بسقارة - الجزائر

لخص:
لا شك في أن أية مقاربة مأمولية للخطاب الأدبي تستند من قرب إلى المعرفة اللغوية، من حيث كون اللغة المادة الأساسية للأدب. وإذا كان مسعى القراءة النقدية الوقوف على أسرار اللغة المبدعة كان تفسير تلك الأسرار كامنا في آليات اللغة وطريقة اعتمالها في النصوص السردية والشعرية، وهذا بالنظير دائما إلى قارئ متفاعل. لقد جرت عادة المؤرخين للنقد أن يصنفوا أراء الناقد الفرنسي ميشال ريفاتير ضمن ما يعرف بالأسلوبية الشعرية، والأسلوب هو واحد من المفاهيم المحورية التي استمدها النقاد من قديم، إلا أنها عرفت في مرحلة ما من مراحل النقد المعاصرة تحولا نحو الوصف البنيوي للنص الأدبي، بداية من الاتجاه الشكلاني، وقد يعوض هذا التصنيف أن عمل ريفاتير على مستوى الخطاب الشعري كان منصبا على اللغة، كان اشتغاله على تحليل الأفق الإبداعي للغة الأدبية انطلاقا من عدم وفائها لقواعد اللغة المعهودة في التواصل اليومي.
لكن العودة إلى كتاباته النقدية في ضوء ما يعرف بسيميا الشعر يجعل الجزء بهذا التصنيف الصارم غير مأمون، لأن تحليل الأسلوب الأدبي في تجربته يعتمد على ثلاثة أبعاد متداخلة يمكن لأي قارئ حر أن يلاحظها من
There is no doubt that any approach of literary discourse must be based on a linguistic knowledge, in the fact that the language is the essential material of literary work. If the purpose of the critical reading is to describe the secrets of creative language, the interpretation of those secrets is hidden in the language mechanisms and the way of its interaction in the narrative and poetic texts, and this is when taking into account an interactive reader. It has been the historians of criticisms’ custom to classify the views of the French critic Michel Riffaterre in what is known poetic stylistic, and the style is one of the central concepts that critics derived from the old, but it has known in a stage from stages of the contemporary criticism a shift towards structural description of literary text, starting from formalistic trend, and this categorization can sustain that Riffaterre’s work at the level of poetic speech focused on the language, his concern was with the analysis of the creative horizon of literary language starting from its disloyalty with its usual linguistic rules in the daily communication.

But returning to his critical writings in the light of what is known Poem’s Semiotic makes the assertion of this strict categorization weak in its base, because the analysis of literary style in its experiment depends on three overlapped dimensions that any free reader can notice through his dialogue with poems: The first dimension is the language of the text or the style and it is an active element in determining literary characteristics from others, and the second dimension is the relationship between the differentiation of that language and reality, or reference, the third dimension in poetic discourse analysis is the tentative relationship between reader and text. If it is possible to root these three dimensions in the criticism practice
التفكير اللغوي في سيمياء الشعر عند ميشال ريفاتير

الزهوءية العلامة أو المدلولية:

من المألوف أن تترد في كتب الدراسات اللسانية والنقدية العربية عدة مصطلحات يقصد بها في الأصل مفهوم واحد، ومن تلك يشتهي مفهوم توالد المعاني بعدة تسميات كسمياء العلامة والمدلولية والإدلالة وغيرها، وبشوب ذلك الاستعمال المضطرب أحياناً قلة عناية بتحديد المفهوم وتأصيله، إذ لم تول "Significance' من "علم اللفظ لمصطلحي سميماء العلامة والمدلولية" معالج عناية، وقد يعود ذلك إلى حداثتها واقتراحاتها، في كثير من الأحيان، بالمقاربات النقدية التي أبدعتها عن ذاتها الأصلية. وكان "معجم اللسانيات" من المعجمات القليلة التي أوردت تعريفا للمدلولية وحاولت تأصيلها في الدرس اللفظي: "هي كون شكلاً لغويًّا ماً دالاً، أن تكون له دالة ما، بمعنى أن يكون علامة. الزوجان في الفرنسية مثل "L'on" في عبارة 'do' وتمثل "imagine fort bien que...وائز من العلامة المدلولية "textualité" تجعله دالاً، مثلها في ذلك مثل صفة النصية "littérarité" التي تجعل من كم جملة ما نصاً، وتمثل الأدب" ما أدياً.

ثمة تعريفات أخرى تتفق مع تعريف جورج مونان، يذكر منها أن المدلولية هي ما تقع به الدالة ما تتكون به العلامات إلى حدامات المعنى، وبالتالي ما يتضمن وجود شيء كحياة للمعنى، أو أن المدلولية في اللسانيات خاصة مما له معنى، خاصة للمدلول". كما يرمز أندري يعقوب على المفهوم الأصلي للمدلولية بالبحث في أسس تنظيم العلامات لتكون دالاً. وعلى هذا يمكن القول أن المدلولية مبزاً كون الشكل اللغوياً دالاً؛ فهي تعبير

the ready classification in a kind from the kinds of criticism trends will be a work that lacks methodology and evidence.
عن اضطلاع هذا الشكل بوظيفة الدلالة، غير أنها تختلف عن الوظيفة من خلال البعد المعرفي لدراسة الدلالة، لأن دراسة الدلالة هي دراسة وظيفية أساسًا، أما البحث في المدلولية فهو استجابة لخصائص معينة في الشكل اللغوي تجعله قادراً على أداء تلك الوظيفة.

بظهر من التعريفات السابقة أن المدلولية ظاهرة نسبية تتغير من شكل لغوي إلى آخر، فكلما زاد وضوح الدلالة زادت مدلولية الشكل. ويرى جون ليونز أن الحبازة إلى المعنى أمر قابل للقياس، ويشتري لذالك أمثلة بكلمات تتغير قيمتها التعبيرية من سياق إلى آخر، ولهذا فإن العامل الحاسم عند هو السياق المتوضئ للعنصر اللغوي المقصود بالدرس، بمعنى أن المدلولية هي مفهوم نسبي متغير بنا لعوامل سياقية تؤثر في العنصر اللغوي. وعلى هذا الأساس، أي درجة المدلولية في العنصر، نذكر كرامسي اتفاقيات مختلفين في تكوين المخزون المعجمي: اتجاه التمييز، واتجاه التجميع. يعنى الاتجاه الأول بالتمييز والتحديد الدقيق للمعنى أي اتجاه بدرجة أكبر نحو العلامة "sign clearness " أو وضوح العلامة، والثاني بجمع المعاني المختلفة في فئات واحدة أي في اتجاه نحو عموم العلامة، وما اتجاهان يركزان على طبيعة المدلولية في ألفاظ اللغة، بالنظر إلى علاقتها الوثيقة بمفهوم العلامة، حتى أن الدارسين يربطون بشكل آلي ومطلق وجود المدلولية بميلاد العلامة.

المدلولية وميلاد العلامة:

تُؤخذ العلامة في هذا المقام وفق التصور البسيط لها على أنها ثنائية من وجهين غير قابلتين للفصل: الدال والمدلول؛ حيث يكون الدال في العلامة اللغوية بصمة صوتية يحظى بالمتكلم عن ألفاظ لغته، بينما يمثل المدلول المفهوم المرتبط بتلك البصمة الصوتية في أذهان أصحاب اللغة. بما أن

216
التفكير اللغوي في سيميا الشعر عند ميشال ريفاتير

المدلولية هي خاصية وجود الدال، والدلالة علاقة وظيفية تربط الدال والمدلول في صلب العلاقة، فإن وجود المدلولية مرتبط بوجود العلاقة، إذاً مفهوم العلاقة قائم على وجود مدلولية ما لتشكل الدال. فالدلالة والعمات، 

بوصف هذه الأخيرة ميزة وجود العلاقة في ثنائية ما، ظاهرتان ريفاتر في 

الوجود لا تقوم إجهاداً إلا بالأخرى.

وأساس المدلولية معرفة سابقة، إذ إن المرء لا يدرك الرموز إلا من خلال 

معرفة سابقة بأسرار الرموز، إما لأنه ثمة رابط سلوكي بين طرفي العلاقة 

في ذاكرة المتلقي، أو أن هناك محاكاة في العلاقة تتمثل خبرة سابقة تلقاها 

قارئ العلاقة من قبل. في الحالة الأولى يشبه تلقى الإنسان للعلاقة تلقى 

الكائنات الحية للمنائر الشرطية، وفي الحالة الثانية يشبه إدراك العلاقة 

عملية استنتاج منطقية لا يملكها إلا كائن عاقل.

المدلولية، التي هي أساس تعريف كل علاقة، مفهوم نسبي، وجوده من 

عده متعلق بكينوته في فضاء دلالي خاص، تشكلها المعرفة السابقة بنظام 

العلامات، وعلى هذا الأساس يمكن أن تكون كلمة "arbor" التي تمثل بها دي 

سوسير علاقة في سياق لغوي خاص، كما يمكن أن تفقد ماهية العلاماتية في 

Siaq آخر، وتمثل ذلك الأشياء في الكون. يؤكد هذا عمل ميشال فوكو "

على تاريخ العلاقة في العصر الكلاسيكي وتطورها في عصر "Foucault

النهضة حيث يقول: "عرفت الكلاسيكية العلاقة وفقاً لثلاث متغيرات: أصل 

الروابط؛ يمكن أن تكون العلاقة طبيعية (الخيال في المرأة يمثل ما يعكسه) 

أو اتفاقية (كالكلمة عند الجماعة من الناس تمثل فكرة ما). نوع الروابط: 

يمكن للعلاقة أن تتمتى إلى المجموعة التي تشير إليها (الملمح الجيد ينتمي 

إلى الصحة الجيدة التي يعبر عنها) أو أن تتميز عنها (كصور العهد القديم 

هي علامات بعيدة في التمثيل والتفكير بالوساطة). تأكد الروابط؛ يمكن 

172
للعلامة أن تكون ثابتة عندما تتأكد من أمانتها (هذا يدل التنفس على الحياة) ويمكن أن تكون محتملة فقط (كعدالة السلاسة على الحمل). لا يتضمن أي شكل من أشكال هذه الروابط التشبيهيّة [...] مادات العلامات دائمة أو أكيدة أو محتملة فإنها تجد فضاءها داخل المعرفة» 7. أي أن المعرفة عامل في وجود العلامة والعكس كذلك.

ويؤيد هذا أيضًا ما ورد في القرآن الكريم من كون أصل المدلولية اللغوية تعليم الأسماء، جاء في سورة البقرة: «ومعَمَّ آدمُ كَلِّبَهَا كَثَرَ عَرَضْيَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ اللَّهُ تُمَّنُعُونِي بِأَسْمَاءِ هُؤُلَاءِ إِنْ كَنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُحَانَاكَ لَا عَلِيمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلِمْتُنَا إِلَّا أَنْ تَعْلَمَ الْعَلَمُ بِأَنْ تَعْلَمُ الْعَلَمَ الْعَلِيمَ الْعَلِيمُ (32) قَالُوا أَنَا آدمُ أَنَا آدمُ أَنَا آدمُ أَنَا آدمُ إِنْ كُنْتُمْ بِأَسْمَاهُمْ فَلَنَا أَنْبِهَا مِنْ أَنْبِهَا بِأَسْمَاهُمْ فَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّمَ أَلَّمْ أَلْهَ كَلْمَ إِيَّا أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تَبْدَوْنَ وَمَا كَتَبْتُنَّ تَكْتُمُونَ (33)» حيث تكشف الآيات عن أصل دلالة الكلمات التي تعلمها آدم بحسب ما ورد في التفسير، فأسلوب الدلالة هو فعل التعلم، والأسماء في الوصف القرآني نوع من المعرفة التي سبق لها أحد مشتقات الفعل تعلم ولكونها صدرت عن الخلق أول الأمر فهي معرفة شريفة، وقد بررت الملائكة عدم قدرتها على ذكر الأسماء بلغة علمها ومعرفتها، فلا أدل من هذا على ضرورة المعرفة لوجود العلامة والمدلولية.

هذا النسق الدلالي أو الفضاء الثقافي هو الإطار الذي تجد فيه العلامة حياتها، لهذا عد الدراسون بعد دي سوسيير العلاقة في صلب العلاقة الثنائية علاقة ضرورية غير اعتباطية، يملأها هذا النظام الذي يفرض استعمالاً محدداً للعلامة حتى تكون ذات مدلولية، يقول رومان جاكوبسون: «بعكس أطروحة سوسيير، فإن الارتباط بين الدال والمدلول، أو تعبير آخر، بين سلسلة الفظومات والمعنى، هو ارتباط ضروري، ولكن العلاقة الضرورية الوحيدة بين الجانبين هو ارتباط يقوم على تجاور، أي على علاقات خارجية، في حين
ان الارتباط يقوم على تشابة معين (أي يقوم على علاقة داخلية) هو ارتباط عرضي فقط. فهو يظهر فقط على سطح المعجم المعبر عن كلمات معبرة توحی بمعانيها ""Onomatopeic"". ويؤدي كل فريق بنحو تآبدا مطلقا فيقول: "تبدو الإشارة بطبيعة الحال اعتباطية عندما ينظر إليها من منظور التشابة، أي عندما نقارن دوال إشارة ما والمدلولات نفسها في لغات مختلفة، إلا أنها، كما بين بفنيست، لا تعود اعتباطية لكل لغة تدرس في ذاتها، عندما ينظر إليها من منظور التقارب ""Contiguity"".9

وإذا كنت نتفق مع دي سوسير في كون الارتباط جوهر الرابطة بين الدال والمدلول في العلامات الاجتماعية كاللغة، إلا أن فكرة الضرورة في رحم العلامة تؤكد شرط ميلاد العلاقة الموجودة المدلولية: فالضرورة تعني وجود ربط متن بـ دال ومدلول: "نجد بالنسبة لبرس أن العلاقة الأيقونية من بين النماذج العلامة الثلاثة المسماة هي التي تعود أساسية. ذلك لأنه، من منظور افتراضي، كل ما يفعله لنا الواقع قابل لأن ننظر إليه بوصفه علاقة، سواء تعلق الأمر بشيء واقعي أم بأمر مجرد. فالبيت والحدث والبنية والحركة والصرخة والصمت كل شيء يمكن أن يكون علاقة أو أن يصبح علامة بشرط أن يحتوي إلى شيء آخر. ولكن هذا ليس ممكنًا إلا إذا كان ممكنًا ل العلاقة ما أن تنشأ بين ما هو حاضر ""العلامة"" وما هو غائب ""مرجعها"".10 م موجود الرابطة، من حيث هو مؤشر على المدلولية، شرط لوجود العلاقة.

تفسير المدلولية هو تفسير وجود العلاقة: ليس هناك، في واقع السيوانيات، منهج محدد لدراسة المدلولية وآلياتها، وإنما تملة جملة أفكار تتألفت المفهوم عن قصد أو غير قصد في إطار نظريات لساني مختلفة. ولأن حضر هذه الأفكار غير مناسب في هذا المقام فإن البحث
يركز على فكرتيين جوهريتين اقتربتا من المفهوم وحاولتا تفسيره: من جهة
المقاربة السلوكية وهي أقوى فرضيات تفسير وجود الدلالة أو مدلولية
الأشياء لأنها تجيب عن السؤال "ماذا تدل الأشياء على معان ما؟" ومن جهة
أخرى المقاربة التحليلية الناشئة عن النظريات المعرفية وتتضمن مقترحان
رئيسان لفهم آليات المدلولية هما: المستويات اللغوية، ونظرية قبل الاختيار.
فالسلوكية تهدف إلى تفسير المدلولية والنظرية التحليلية تهدف إلى وصف
آلياتها في اللغة.

ومضمون الفهم السلوكية المعنوي هو كون الاسم يعوض جزءا من الخبرة
التي يلتقي فيها المتعلم للحظة المرجع معا، وهو المقصد بالإقتران عند علماء
النفس السلوكيين. فالاقتراح هو اجتماع اللفظ بالمرجع أو الشيء بوصفه مثيرا
طبيعيا في سياق التجربة، ومع تكرار عملية الاقتراح هذه يتحول اللفظ إلى
مثير شرطي يمكنه تعويض المرجع تدريجيا، وهذا يصبح الاسم (من حيث
هو جزء من الخبرة المكتسبة) بديلًا من عناصر الخبرة كلها، وهو ما يسميه
علماء النفس تأثيرا بالإشارة إلى الإشارة بالألفاظ. وهذا يقتضي أن
تكون الكلمات قوة تؤدي إلى إحداث نتائج وأثار في العقل مثل القوة الموجودة
على نحو طبيعي في الأشياء التي تتوب عنها تلك الكلمات.

وفي باب الكلام على الاتفاق اللغوي يشير ابن جني إلى قدرة اللفظ على
استدعاء المرجع الغائب كأنه بدل منه فيقول: «وذلك كان يجتمع حكيمان أو
ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإشارة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد
منها اسمًا ولافظًا إذا ذكر عرف به مسماه ليلتمان من غيره، ولغي حكيمًا بذكره عن
إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره
لبلغ الغرض في إيابة حاله» ١١.
تقد لقيت النظرية السلوكانية انتقادات كثيرة في الأوساط المعروفة من عدة جوانب، منها على الخصوص تقليم الدور المعزلي للعقل واقتضارها في تفسير الظاهرة اللغوية على مبدأ الإثارة والاستجابة، ولكنها مع ذلك تبدو أقوى النظريات في باب تفسير المدلولية في الكلمات، وهو تفسير اعتمدته السانيات المعروفة بعد ذلك انطلاقاً من دي سوسير وبره، خاصة مع تركيز هذا الأخير على عنصر الموضوع أو المرجع الذي تتخذ منه العلامة معناها، وهذا تكون المرجعية أداة فاعلة في تفسير ظاهرة المدلولية.

الجانب الذي كشفه عمل النظرية السلوكانية على المعنى لا يخص اللغة في ذاتها وإنما يخص عنصر المدلولية في اللغة، أي كيف للألفاظ أن تستحضر معاني محددة في النفس البشرية. هذا هو التساؤل الجوهري الذي حاولت النظرية السلوكانية الإجابة عليه، وقد ظهر أنهما كيف فهمت ظاهرًا التعلم والمدلولية بناء على حضور المرجع وغيابه أو ما يسمى عادة في السانيات بمسألة المرجعية.

تفترض النظرية أن نشوء المعاني وارتباطها بالألفاظ يبدأ من حضور الأشياء المسمى "مراجع"، في البدء يقترن هذا الحضور بنطق الأسماء الموافقة لها، وعملية الاقتراح هذه ضرورية لأنها توازي ما عده بالوف تجمعًا للمثير الطبيعى والمثير الشرطي. فالشيء أو صورته الحاضرة هو مثير طبيعى للتصور ومع اقتران اللظ ذلك الحضور يتحول تدريجيا إلى مثير شرطي من باب أن حضور الاسم من بعد ذلك منفرد يعوض حضور قريبته، أو باصطلاح علماء النفس حضور جزء من التجربة يعوض التجربة كلها. هذا هو أساس تفسير المدلولية في النظرية السلوكانية، وهو تفسير لا مناص من أخذه بعين الاعتبار على الرغم من الانتقادات الموجهة لهذه النظرية في دراستها للغة.
وضع جون فيرث في كتابه "أسندة الناس والكلام" فصلا عنوانه: "المعنى واللامعنى" يذكر فيه مقارنة بين اللغات اليومية واللغات الشعرية واللغات العلمية، ويوضح مصطلح اللامعنى قاصدا به مرة الكلام الفارغ في اللغة العلمية ومرة غياب الدلالة في منطق في الملفوض. ثم يربط درجة المدلولية بقدر مرجوعية النص حيث يقول: "كارناب ونورات وآخرون ذكروا ما فهموه من نظام اللغة المنطقيّة، من التحليل المنطقي والاستعمال المنطقي للغة. من أجل الحصول على معنى منطقية، لا بد للملفوض، بعد التحليل، أن يكون قابلا للفحص في عالم الزمان/المكان، والكلمات المستعملة يجب أن تكون مرتبطة حتميا بالكلمات المحيدة إلى التجربة المباشرة.

وقد آيد بيرس هذه الفكرة عند دراسته للعلامات في السيماء، وحاول من خلال الكلام على عناصر العلامة - أن يبيّن دور المرجوعية في تفسير وجود العلامة، وبالتالي المدلولية، كما في النص التالي: "رجلان وافدان على الشاطئ، ينظران إلى البحر. يقول أحدهما لصاحبه: "هذة السفينة لا تتقل سلعا، وإنما مسافرين فقط". لكن إذا كان الآخر لا يرى أي سفينة، فإن أول معلومة يأخذها من الملاحظة موضوعها الجزء من البحر الذي يراه فعلا، والإعلام بحضور شخص له عينان ثابتتان أو مدربتان على رؤية الأشياء؛ وهكذا بفرض حضور السفينة في معرفته، فإنه مستعد لقبول المعلومة المتعلقة بالسفينة، بكونها مسافرين فقط. ولكن الجملة كما هي ليس لها من موضوع سوى ما يعرفه مسبقا. الموضوعات - لأن العلامة يمكن أن تكون لها عدة - يمكن لكل منهما أن تكون شيئا واحد موجودا معرفا أو شيئا يعتقد أنها وجدت خارجا، أو يعتقد وجودها، أو مجموعة أشياء أو صفة أو علاقة أو حداثا معروفا؛ وهذا الموضوع الفريد يمكن أن يكون بدوره مجموعة أو
التفكير اللغوي في سيمياء الشعر عند ميشال ريفاتير

كلا مشكلاً من أجزاء، أو يمكن أن يحوز نوعاً من الكينونة كبعض الأفعال المقبولة التي ينفي الكائن مقولةًها، أو شيئًا من طبيعة عامة مرفقة، مكتشفة أو معثور عليها خلال ظروف عامة١⁴.

ثم يشرح بيار فرات هذا المثال بالقول: "إذا كان السامع لا يعرف معنى السفينة، أو لا يفهم أن العلامة سفينة متعلقة بطريقة ما بهذا الموضوع، فإنه لا يفهم ما يقوله الشخص المتكلم، لأنه لا شيء في "سفينة" يمكن أن يعرفه بالموضوع. من هذه السفينة يتعرّف على أنه موجودة أولاً، في حال ما لم يرها، وبعد ذلك أنها لا تنقل إلا مسافرين حسب مخاطبه. الملحوظات المسجلة على "سفينة" تتطبق أيضاً على "مسافرين، سلع، الخ". مجموع الموضوعات المسماة في هذه الجملة تشكل موضوعاً مركباً. المعرفة إذن هي موضوع مرتبط بعلامات. كل معرفة غير مربطة بعلامات، أي التي لا يمكن أن تكون عليها شيئاً، إذا كانت موجودة فهي عند برس ليست بمعرفة١⁵.

على أن الفرضية المرجعية لا تكفي وحدها لفسير المدلولية في النصوص؛ إذ إن النص - بوصفه شكلا لسانيا معقداً - لا يمثل مثيراً شرطاً بالمفهوم الأصلي للمثير، وهنا يأتي دور النظريات المعرفية التي تضيف للأصل السلوكى للمدلولية وسائله البنائية في النص من حيث هو تركيب متفرد ومتميزة لمثيرات سابقة في التجربة الإنسانية. هذا يكون التفسير السلوكي / المرجعي قاعدة لفهم ظاهرة المدلولية، كما يستكمل البحث المعرفي تفسير المدلولية على مستوى النص.

من النصية إلى المدلولية:

تحديد مفهوم النص يستند إلى مبادئ النصية١⁶، تلك التي يمكن من خلالها التمييز بين النص وغيره من الأشكال اللغوية الأخرى كالجملة. وحسب
الفرضيات المقترحة أثناء الكلام على تفسير الدلالة على مستوى النص، فإن آليات المدلولية اللغوية تكمن في الخصائص النصية ذاتها. أي في مجموع الضوابط التي تجعل من كم جملي ما نصا، والسبيل إلى دعم هذه الفروض هو أن:

أ— مفهوم النص في العربية مقترنًا بوجود دلالة ظاهرة وواضحة، أي أنه مقترن بالمفهوم النظامي للمدلولية، وهذا ما يخولنا الربط التكافئي بين النصية والمدلولية تمامًا كالتكافئ بين العلاماتية والمدلولية. مما يعني أن فحص آليات المدلولية في شكل لغوي ما يقتضي فحص آليات النصية فيه، فإذا توفر هذا الشكل على تلك الآليات الأساسية المدروسة (عناصر النصية) فهذا يعني أنه يتميز بخصائص المدلولية المشروعة. وحتى المدلولية الشعرية أو الإجرائية لا يمكن مقاربة مفهومها إلا من خلال تصوير واضح للنص، وقد ربط ميكال ريفاتي ربطا تلازمياً بين الظاهرةين حتى عد النص الواحدة الأساسية للمدلولية، وهذا أيضًا من المفارقات التي تجمع المفهومي النظامي والشعرى للمدلولية على اختلافهما.

ب. تحليل الدارسين لعنصر المقولية والإعلامية غالباً ما يعتمد على عنصر نصيّ أخرى مثل الانسجام والبنية النصية، وتماسك النص مع السياق؟ فجون ليونز مثلاً يربط بين المقولية والمقام، حيث يميز بين الدلالة والمقلولة من خلال أمثلة يعرضها، فرير أن عبارة "مات أبي" ذات دلالة ولكنها لا توفر على مقولية اجتماعية وفقا للمقام، بينما يرى في المثال "أكث جان الحساء" جملة شاذة من الناحية الديالامية ولكن السياق الاجتماعي يجعلها مقلولة. وكذلك خضع مفهوم الإعلامية للتحليل باعتماد عنصرية بنية النص والمثلقي، ومعلوم أن بنية النص تقوم على آليات الانسجام والانسجام، كما أن المتلقي الذي نقص من خلاله إعلامية النص هو عنصر متغير وغير ثابت.
التفكير اللغوي في سيمياء الشعر عند ميشال ريفاتير

كان النص وقد عدة الدارسون عنصرًا سياقياً. فمن جهة البنية اللغوية تكون الإعلامية صفة في النص فقط، ومن جهة المتلقي يكون النص تأويلًا خاصًا بقارئ ما، وفي كل الحالات لا نخرج عن إطار العناصر النصية الثلاثة: البنية النصية، والتماسك التدراوخي (السياق) والتناص. 

ج. ثمة دوافع تدعو إلى القول بوجود علاقة بين المقبولية والإعلامية من جهة وبين البنية اللغوية (الاتساق والانسجام) والموقفية والتناص من جهة أخرى، فاصليين بالتناص هنا استحضار نصوص سابقة لقراءة نص حاضر. هكذا تجتمع ستة عناصر من النصية كما تصورها دي بوغراند ودريسلر ولكنها تبدو عناصر من مستويات مختلفة، حتى أن يمكن تفسير المقبولية والإعلامية بناءً على المعطيات المتعلقة ببنية النص وتماسكه مع السياق والنصوص المؤولة له. ويستبعد هذا التصور مفهوم النصية كعنصر مثبت للنصية لأنه غير خاضع للملاحظة ولا يمكن بآية حال فحصه في الملفوظات الإنسانية، ولا يعني هذا نفي القصد في ممارسة اللغة، ولكنه كحدث مراقب للعملية التواصلية بخصى مرحلة سابقة على وجود النص ذاته، والتوصيف العلمي لا يهم إلا للظواهر المصاحبة للنص. هكذا يمكن تمثيل التعالق بين العناصر النصية فيما بينها وعلاقتها بالمدلولية كما يلي:
وضع مصطلح المدلولية مكان النصيّة هنا بناءً على تكافؤهما وتلازهما سواء في التصور العربي للنص وعلاقته بالمدلولية النظارية (الأولى)، أو في تصور الإجراء النقدي الحديث للنص وعلاقته بالمدلولية الشعرية كما هي عند ريفاتير. هذا يمكن التأكيد على مشروعية دراسة المدلولية في النص من خلال فحص عنصري المقولية والإعلامية فيه، ولا يكون ذلك إلا بمقارنة آليات البناء اللغوي للنص، وتشبيه التداولي مع السياق، والنصوص المؤثرة له في نسق ثقافي محدد.

بذا هذا نصل إلى القضية الجوهرية وهي كيفية مقاربة المفهوم النظامي للمدلولية في النصوص، حيث لم يغط للمقاربة والتحليل وفحص الوسائط التوصيفية، كما خضع له في مجال النقد، وظل التحليل النصي حبيس نوع محدد من الملفوظات وهي الكتابة الشعرية، حتى عدت المدلولية ريفاً للأدبية من أجل ذلك سواعد البحث فيما يأتي نظريات ساهمت في تفسير المدلولية النظامية، وقد سميتها نظريات تحليلية نسبة إلى منهجها العام في دراسة الدلالة.

نظريات التحليل الدلالى تصف آليات المدلولية:

ليس المصوصد هنا تفصيل الكلام على هذه النظريات، إنما سيكفي البحث بذكر أهم الأفكار التي قدمتها نظريات المستوى اللغوية والتحليل التكويني (فية الاختيار والتشابك) في سبيل فهم آليات المدلولية في اللغة الطبيعية، إذ لا تهدف هاتان النظريات إلى تفسير أصل المدلولية في النظف كما تفعل النظرية السلوكية، وإنما تبحث في قواعد الربط بين الوحدات اللغوية بطريقة خلاقة تجعل منها أشكالاً لسانية دالة. هذا يكون سبيل الوحيد لكل مقاربة للمدلولية النظامية هادفة إلى الإجابة عن السؤال: "كيف يكون نصّ ما داله؟"
التفكير اللغوي في سيمياء الشعر عند ميشال ريفاتير

من خلال المخطط السابق تبين أن المدلولية النصيّة يمكن ترجمتها إلى عنصريّة المقبولية وال الإعلامية، لأن الملفوظ لا يحظى بالقبول إلا إذا كان دالاً وفق نظام لغوی مشترک بين الملقی والمثقی على حد سواء، كما أن هذا النص لا يكون دالا إلا إذا كان إعلامياً، أي أن يتضمن معلومة ما، من دون اشتباط أن تكون معلومة جديدة لدى القارئ، وإنما أن يلتزم البناء النصي منهجاً ما يكون من خلاله حاملا لـمعلومة أو معنى وفقا للنظام اللغوي دائماً، أي وفقا لقواعد اللغة التي ينتسب إليها النص. بهذه الطريقة نضمن كل من المقبولية والإعلامية إلى افتراض وجود نظام لغوی يسند وجود النص ذاته، حيث يكون هذا النظام مشترکا فعلياً بين شخصين متقابلين على الأقل، هكذا نضمن أن يكون للملفوظ دالاً، أي أن تكون له مدلولية. بسبب ذلك سميته المدلولية في هذه الحالة نظماً، لأن النظام أو اللغة الفعالة يسندان وجودها وجود النص ذاته، فهي على عكس المدلولية في المقاربة الإجرائية تعمد على حالات اللاقواعية، أي حالات الخروج عن النظام اللغوي المعروف بهدف تجاوز مستوى المحاكاة أو الدلالات النمطية للكلمات لخلق معنى خفيّ متحرك. جوهر المدلولية الأساسيّة إذا هو نمط العلاقة بين النص والنظام، وهي العلاقة التي اهتم بدراستها فردينان در سوسير وليمسليف 18، فكلما كان النص ممتثلًا للنظام معني الشعري المشترك بين أصحاب اللغة كانت مدلوليته أكبر.

قانون قيد الاختيار وتفسير مدلولية الجملة:

درس علماء اللاقواعية قضیّة تفسیر المعنى على مستوى الجملة من خلال نظرية التحليل التكويني، وتوصل ستيفن أولمان وفرانک بالمر وجیزلد کاتر restriction إلى أن وجود اللاقواعية في تركيب ما محکوم بقانون قيد الاختيار 'de sélection
يُؤْمِنَ أن نظرية دلاليّة معاصرة وهي نظرية قواعد الحالة. والميمون العام لهذا القانون أن ثمة انسيامًا منطقيًا بين الدلالات المفردة للكلمات المكونة لتركيب لغوي ما بحيث يتمتع هذا التركيب بمقبولية لدى المنطيقي، وعلى أساس هذا القانون يُقَبِّل المنطقي العربي عبارة مثل "قرس حبل" ولا يُقتَبِل عبارة "حصان حبل".

إن الأمر يُؤَلِّل إلى دراسة العلاقة الدلالية بين مكونات التركيب، وفي مثل هذا يقول الجرجاني في تعريف النطاق المتمثّل: «يريدون أنه بمواقفه معناآ لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن فيه، ولفظ قل قلب ناب يريدون أنه من أجل أن معناه غير موافق لما يليه».20 فالأمر يعود إلى المعنى والدلالة المفردة لمكونات العبارة، ويؤكد الفكرة في موضع آخر في تعريفه للنطاق بالتمييز بين التواطؤ في معنى المعجم والمنطق في معنى التركيب، ف يقول: "نَظْمُ الحروف هو تواطؤها في النطق فقط وليس نظمهما بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها يمقتِف في ذلك رسمًا من العقل أقتصى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحترّاه. فلا أن وَاصِفَ اللغة كان قد قال "بيد" مكان "رب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد وأما نَظْم الكلم فيلم الأمر فيه كذلك لأنَّه تقني في نظمهما أثار المعاني وترتّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نَظْم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النَظْم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتهق [... والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بِنَظْم الكلم أن تواتّت ألطفاظها في النطق، بل أن تُناسِق دلالتها وتلاقِت معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل".21

فمنطق العلاقات بين المعاني المفردة هو أساس بناء كل تركيب لغوي، ولا بد أن يكون منطق التركيب اللغوي مقتبسًا من منطق الواقع، أي بحسب
التفكير اللغوي في سيمياء الشعر عند ميشال ريفاتير

العلاقات بين الأشياء في العالم غير اللغوي، وهو ما اصلّح عليه تسميته في
اللسانيات بعالم المراجع. فالمراجع إذا هو مقياس منطقية الدالّة، وبقدر
مطابقة اللغة لمنطق الأشياء تزيد مدلولتها، وهي الفكرة التي أشير إليها سابقاً
في باب التأكّيد على دور المرجعية في تفسير المدلولية النظامية.

وإذا عدنا إلى المثال السابق "حصان جلبي"، وبغض النظر عن صحته
النحوية، فإن العبارة غير مقبولّة لسبب واحد هو عدم احترامها لقيد الاختيار
بين المتعلّقات في الترکيب الواحد؛ فإذا افترضنا بقياس القضية أن "جلبي" هو
موضوع الكلام، فإنه يفرّض على كل خبر أو محمول متعلق به نوعاً من
القبول، والقيد في مثالنا هنا هو أن يكون المتعلق آثناً، فكلمة "آثنا" يجب أن
تكون مكونا داليا في كل كلمة نرحو تعليقها بالموضوع المختار وهو "جلبي".

ويرمز لهذا القيّد عادة هكذا "آثنا"، فكل لّكلمة تتضمن في تحليلها الداللي
المكون /آثنا/ تكون صلاحية لتأكيد مع كلمة "جلبي" جملة ذات دالّة، أما إذا
كانت الكلمة لا تتضمن هذا المكون أو القيّد في تشكل مع الكلمة الموضوع
تركيباً شاذًا غير دالّ.

على أن في اللغات الإنسانية بعضها الحدود الدلالية التي يمكن تجاوزها في
عملية التواصل، بحيث توظف الكلمات في غير دلالاتها الأصلية المتوقّع عليها،
أي أن التركيب الجمعي يخالف المنطق في هذه الحالة، ومع ذلك يحافظ على
مستوى معين من المقبولية وال التواصلية وبالتالي من المدلولية. ولعل البلاغيين
هم أكثر من اهتمّ بهذه المسألة ودرسها تحت عنوان المجاز، ومن الشروط
التي وضعوها لتحقيق المدلولية في تركيب مجازي وجود قرينة في الشكل
اللساني تدل على الغرض المقصود الذي هو بخلاف ظاهر اللفظ.

وقد تجاوز الأدب، في تصور الحداثة، هذه الشروط فأغّرق في استعمال
الرمّز البعيد المفطّر إلى الغموض، والغموض كما يظهر من فهمًا للمدلولية
الناصريyah هو أدنى مستويات المداولية، ولكن مع ذلك بل لأجل ذلك يُعد أساس الشعري الحديث، يقول عبد الله حمادي: "فالرمز الشعري كما أفهمه هو معادل موضوعي لمصطلح لا عقلانية العبارة الشعرية في الشعر المعاصر، فنجد مثلا أكثر عاموضة وتشعُبًا في المدرسة السريالية من المدرسة الرمزية نفسها، وبهذا يكون مفهوم الرمز عندما ليس هو المفهوم التقليدي، فالرمز عندنا هو النتيجة اللاعقلانية المنبثقة من معادلة مجازية: $A = B = C = D = E = F$ مثال وإن هو تطور بلازم يحت في العبارة الشعرية وهو ما يصطلح عليه عند نقادنا المعاصرين بظاهرة الغموض، وعند النقادات فناني بظاهرة الغموض. $22$ إن مداولية التركيب إن قابلة للتفسير بحيث يمكن وضع شروط تحكم ضروب الدلالة وعياها في تركيب نسائي ما، وهذا بحسب قيود الاختيار التي تفرضها الكلمات على أفرادها، أي بحسب العلاقات بين المكونات.

غير أن النسائيات، في مسار تطورها التاريخي قبل زليغ هاريس، اقتصر عملها التحليلي غالبًا على قالب الجملة بوصفه المستوى التواصلى الأساسي، ولم هذا وحده البلاغة وال نحو بديلاً للنسائيات حديثًا بدراسة الجملة ومكوناتها، كما عملت الدراسات النقدية بحوي من النسائيات، على تفسير الإبداع في إطار الجملة. ابتعادًا من النظريات اللغوية القديمة والحديثة عكف النقاد على استمرار نتائج هذه الدراسات على تفسير التميز اللغوي في الأدب، ولهذا جاءت أعمالهم مثلما رأينا عاكفة على دراسة الجملة وحدها. ولأن الجملة هي موضوع علم النحو فقد ربط الجرائني بين النحو والنصم بما يثبت أن أساس الإبداع اللغوي ينتمي في إطار الجملة فقط، ولذلك عرف النصم بالإحال: "أعلم أن ليس النصم إلا أن تضع كلماك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وعندک على
التفكير اللغوي في سيمياء الشعر عند ميشال ريفاتير

قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهبت فلا ترزي عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها».

ولكن منتظابات تقدّم الدروس اللسانية تلح على ضرورة تجاوز الإطار التقليدي ألا وهو الجملة، لأنه لا يمثل المظاهر الطبيعي للغة، ففي الإنسان لا يتواصلون بالجمل بل بالنصوص. ويبدو أن هذه الفكرة تدعمها أداة كثيرة أهمها كون الجملة مفهوما نحويا خالصا، فهي تركيب لأبواب نحوية لا تركيب للكلمات الداله، أما النص فتتضاfare فيه كل المستويات الدلالية لغوية كانت أو غير اللغوية. في هذا السياق اقترح زليغ هاريس توسعا للوصف اللغوي Discourse: يتجاوز الجملة إلى النص في إطار ما سماه "تحليل الخطاب: لأن اللفظيات وجدت لتدرس كل الأشكال اللغوية الموجودة،"analysis والتي تتجاوز الجملة أحيانا كثيرة." ولهذا يعدُ معظم الدارسين مقال زليغ هاريس عن تحليل الخطاب أول تحوّل نحو لسانيات للنص.

من قيد الاختيار إلى تشكيل الخطاب:

ذكر في مستهل الكلام على المدلولية النظريّة أن فحص آليات الظاهرة الدلالية يؤول إلى فحص معالم النصية في الشكل اللغوي وهي القبولية والإعلامية، وهذه بدورها تؤول إلى دراسة عناصر البنية اللغوية، والتناص المنتج للداله، والتدالو. وقد أشارنا إلى أن النظرات الدلالية التحليلية كانت أكثر الفرضيات العلمية اهتماما بالبنية اللغوية وقدرتها على التحليل، هذه البنية التي تقوم على أساس الترابط اللفظي والتماسك الداللي. وفي سبيل فهم العلاقة بين هذين العنصرتين الأخيرين وظاهرة المدلولية النصية عموما اقترح نظرية التحليل التكويني باديّ الأمر كانون قيد الاختيار الذي يميّز بين التراكيب الداله وبين غير الداله، بمعنى أنه كان قانونا لفحص المدلولية.

231
في إطار الجملة. ومن أجل توسيع هذا القانون ليكون صالحاً لوصف النص، تم اعتماد مقياس آخر للوحدات الدلالية حيث صارت القضية في الوحدة الأساسية بدلاً من الكلمة، وبهذا يؤدي وصف الآليّة المدلولية في النصّ إلى دراسة الروابط بين القضايا، وهذا على حد قول آنا جوبيير: «المستوى البديهي للعلاقة الممكنة بين الترابط النحوي والمتناسك النصي هو الروابط القضوية'.25 »

وإذا كان الدارسون يدعون قانون التناغم الدلالي بين مكونات الجملة الواحدة قيد اختيار، فإن تعميم هذا القانون على البنية النصية، كما اعتمده غريمس والدارسون من بعده، سيُشير تناطرًا أو تشاكلًا "Isotopie" وأساس التناظر، كشرط لوجود المدلولية في النص، أن يخضع الروابط بين القضايا لقانون مشترك، ويفرض نوعاً من الوحدة الدلالية، ويتمّ تفسير هذه الوحدة من خلال المكونات الدلالية تماماً كما في قيد الاختيار.

عرض غريماز لهذه الفكرة في كتاب "علم الدلالية البنيوي: بناء على نظرية التحليل التكويني التي انطلقت من علم الفونولوجيا في حلقه براغ، والتي درست السمات التمييزية للفونيمات، وظلت بعد ذلك من قبل لويس يمسليف، أساتذة غريماز، في دراسة بنية الدلالات في الوحدات اللغوية الدالة كالكلمة. ومن أجل توظيف التحليل الدلالي على مستوى النص، اعتمد غريماز مجموعة من المصطلحات الأساسية كأدوات للوصف: "في الحقيقة، بما أنه قد صرح أن الكلمات الموضوعة مفردة لا تحمل دالة، فإنه لا بد من البحث عن الوحدات الدالة الأولية على مستوى البنية، لا على مستوى العناصر. هذه الأخيرة التي نسميه علامات، أي الوحدات المكونة أو الموئميات، ليست إلا ثانية في إطار البحث عن الدالة. ليست اللغة نظام علامات ولكنها تجميع اقتصادي.
التفكير اللغوي في سيميا الشعر عند ميشال ريفاتير

البني الدلالية 26. ثم يأتي بعد ذلك على اقتراح مصطلح يعبر عن العنصر الأصغر للدلالات هو الاسم "Sème" والذي من خلاله يحدث تفصيل المعنى، إنه أصغر مكون دلالي يدخل في بناء دلالات الكلمات في اللغة؛ فكلما "رجل" و"أمرأة" مثلا تتمايزان داليًا من خلال اسم واحد هو/جنس.

وانتقلًا من مفهوم السيم أو الاسم طور غريمس وجوزيف كورتيس سلسلة من المصطلحات التحليلية للمعنى: من أجل ردع الاعتبار للمعنى افترض غريمس وجود الاسمات "Sèmes" أي المكونات النهائية للدلالات. هناك نوعان من الاسمات: الاسمات النووية المنتمية إلى المستوى السيميولوجي للغة (التضمين) والتي تظهر في رحم الكليسمات، والكليسمات المنتمية إلى المستوى الدلالي للكلام، والتي تظهر في الوحدات التركيبية الأكثرا اتساعا والمكونة من تكسيم على الأقل. المعنى أي معنى وحدة في الخطاب، هو التضافر المتجلي للسيمات النووية والكليسمات. بتعبير آخر يتأتي معنى وحدة من سيماتها الخاصة وسيمات سياسها الخطابي» 27، وقد كانت هذه المصطلحات مدخلًا لشرح ظاهرة تشكيل الخطاب ودورها في تحديد مقبولية الملفوظ.

يقترح جوزيف كورتيس مصطلحين في التحليل التكويني هما: الاسمات "Sèmes" والاسمات الصصية "Sèmes actualisés" المحترقة، وهي كلها تدخل في بناء معنى وحدة معجمية ما، لأن المفعمة منها هي التي تدخل فعلا في تحديد الدلالات السياقية للكلمة، وتبقى الأخرى محفوظة غير مفعلة: "هذا يعني أنه من أجل التوصل إلى فهم الرسالة لا بد من تمييز الملفوظ أن يعمل ضمنيا، على الاختيار من بين الاسمات المكونة لوحدة دلالية منتجات حقيقية بالنظر إلى السياق. وهنا نأتي على إدخال مفهوم التناظر: نقصد بهذا المصطلح حضور واسم دالي مشترك على الأقل

233
في وحدتين دلاليتين متموضعتين في المحور التركيبي، علاقة: «عنصر...»، «عنصر...» \(\Rightarrow\) 
أرث وبعناصر...» كما يُشير إلى مفتوحة: "هو ذاهب إلى المسارح". هنا نرى أنه من خلال التوالي بينهما، الكلمتان "ذاهب" و"المسارح" ليهما واسم مشترك هو /المكانية/ حتى وإن كان لكل كلمة منها واسمات متضمنة أخرى. 

هذا لا يعدو التشاكل أن يكون تعبيرًا أمينا عن فكرة قيد الاختيار التي تحكم متبولة القضية. ويمكن ملاحظة توظيف كورتيز لعبارة "من أجل التوصل إلى فهم الرسالة" وهو ما يعني وجود مدلولية للرسالة أو الملفوظ أو النص، هذه المدلولية تتوقف على اشتراك القضايا المتاربة في واسمات محددة بما يضمن استمرار الموضوع ويجعلها معقولة. وقد وظف هذا المبدأ في إطار الجملة التي اختارها "هو ذاهب إلى المسارح"؛ فمدلولية الجملة أو العبارة محكومة هنا بإتباع كليمتي "ذاهب" و"المسارح" في واسم على الأقل، ويمكن ألا تكون الجملة معقولة إذا استبدلا "المسارح" كلمة "العقل" مثلها التي لا تتضمن واسما معروفا وواضحا مع اسم الفاعل. بالمثل يكون الناظر بين القضايا، حيث يشترط في وجود المدلولية أن تتشترك القضايا المتضمنة في النص في واسم داليا على الأقل، والذي يسمى في هذه الحال واسمًا سياقياً "Classème". "كلاسيما" أو التشاكل أو التشاكلاك التي تضمن انسجامه: فقابل بأن مقاطع خطابيا ما متنازل إذا كان له كلاسيم أو عدة كلاسيمات متكررة. فالمركب الذي يجمع على الأقل صورتين سيمتيتين "الكلب ينبح" يمكن أن يُعتبر سياقا أدنى يسمح بإقامة النشاط. إن المفهوم الأساسي للتشاكلاك يجب أن يفهم كمجموعة متكررة من المقولات الدلالية "كلاسيما" تجعل قراءة موحدة للحكاية ممكنة، مثلما نتتج عن قراءات جزئية للمقبولات وعن حل ملاياباتها، موجهة بالبحث عن قراءة
يقول جان سيريفوني في مبحث الترابط النصي: «نشير في البداية إلى نوع من التوازي القائم بين شكّل الجملة وبين استخدامها كمفعول. بالنسبة للجملة هناك شرط استخدم يشبه قيود الاختيار التي نراها في مجموعة من اللسانيات "الوحدات المعجمية": فمثلما أن اللساني "الوحدة المعجمية" خضراء، لا يمكن إلصاقه باللساني "الوحدة المعجمية" فكرة، فذلك لا يمكن استخدام جملة "قطة عمتي فوق السجادة" بعد أي مفعول كان».30 إذا كان هذا المثال هو مقصود الترابط النصي فمعنى ذلك أنه مرادف لقيد الاختيار القضوئي، إذ إنه يعتمد على قضية محورية في النص تفرض قيودا عند اختيار قضايا أخرى تشكل معها نصا. ومثلما يظهر من تحليل اللسانيين لقيد الاختيار على مستوى الجملة من أنه قيد دالذي يتلبي بالإطار النحوي، فلا بد أن يخضع مفهوم الترابط النصي أو قيد الاختيار القضوئي للمبدأ نفسه، بمعنى أنه لا بد بجمع بين الدلالة المضمونية للقضية وأطر العلاقات النحوية بين الجمل.

235
لنزفُرُحُرَمُ جملتين يربط بينهما رابط نحوى هو التفسير، فلا يكون للنص الحو اً المتولد عن هذا الرابط معنى إلا إذا كان مضمون كل من الجملتين مناسباً لهذا علاقاً. وإذا أردنا أن نوعَع دائرة قيود الاختيار على نصٍ يتكون من عدد أكبر من القضايا، فإنه لا بد من قياس درجة صلاحية اختيارنا للقضايا بالنسبة إلى قضية محورية في الخطاب، وهذا وفقاً لنوع العلاقات النحوية بين الجمل المقصودة وهذه القضية. بإمكان قيد الاختيار هذا أن يساعد على تأويل الدلالة الخاصة بالقضايا على اعتبار أنه لا يكون لنص معنى إلا بتحقق محتويات محدّدة للقضايا التي تولّفه، يمكن العودة إلى مثل من قصيدة "بلاد العجائب":

-_ ألف الناس التستر_
-_ ولهذا_
-_ نحسب القهوة خمراً_
-_ وندعُ الملح سكر_
-_ في بلادي_
-_ يؤمن المرء بلبل_
-_ ينظُم الشعر لقنصراً_
-_ مسلمٌ والله أكبر! (لا يمكن فهم هذه القضية الأخيرة إلا بحسب

انسجَّها مع مجمل القضايا السابقة)

توفِّر هذا النص على دلالة مُفيدة يقتضي مناسبة محتوى القضية الأخيرة.
من الناحية المنطقية، لأن يكون نتيجة لمحتوي القضيتيين المتقدمتين عليه، ولما كان ظاهر اللفظ يوجي بغير ذلك، فإن إمكانات التعبير الأخرى التي توفر عليها اللغة الطبيعية مثل التنغيم قادرة على بيان وجه المنطق في الربط بين المقدمات والنتائج. والملحوظ هنا أننا لم نلجأ إلى غير القرائن النقطية التي
يُوفِّر النص في بنيته الداخلية، وعلى هذا الأساس يمكن قياس كفاءة اللغة النصية في التواصل بقدرها على توفير القرائن المنتجة للمدلولية.

المفهوم الإجرائي للمدلولية:

تناولت الدراسة فيما سبق المفهوم الأساسي للمدلولية من حيث هي خاصية وجود الدلالة، أو ميزة آداء الشكل اللغوي لوظيفة الدلالة. وقد عرف هذا المفهوم، بانتقاله من اللسانيات إلى النقد الأدبي، بعض التغيير في المادية والوظيفة، وقد اختبرنا أن نسميه المفهوم الإجرائي لأنه اتباق من الممارسات النقدية الإجرائية التي ركزت خصوصاً على تحليل النص الشعري.

في محاولةٍ منه لتأصيل هذا المفهوم عرض عبد الملك مرتاض تعريفات اعتدها النقاد أمثال جوليا كريستيفا، وميشال أريفي، وروبان بنات، وإفيفيان تودروف. وقد ركز في مقارته للمفهوم على أعمال هؤلاء حول النصوص الأدبية، والشعرية خصوصاً، ولكنه لم يخلص إلى نتيجة محددة، بل وصف هذا المفهوم بالغموض. وقبل عرض طرف من المجهد التأصيلي لمرتاض لا بد من الإشارة إلى أنه لم يقارن بين المفهوم الأساسي للمصطلح - كما اقدمته الموسوعة الفرنسية التي رجع إليها - وبين المفاهيم النقدية عند الدارسين الذين ركز عليهم في عملية التأصيل، وربما كان هذا من العوامل التي أدت إلى غموض المفهوم وزيادة الالتباس حوله.

بوظف عبد الملك مرتاض، في سياق تأصيله لمفهوم المدلولية، مصطلح "التمدَّل" ولم يذكر سبب اختياره لهذا الابتكار: "يعني هذا المفهوم بوجه عام في الكتابات المتفرقة القليلة عنه أنه النص في حال اعتماله، ولذلك فهو لا يطر بالحقول التي تفرضها علوم اللغة. فهذه الحقول يمكن الإقرار بها في مستوى النص التام "Le phéno-texte" وليس في مستوى النص الخادج الذي هو "Le géno-texte". ثم 32 "ل يبرح ناقصاً لا يكتمل".
يلخص مجمل آراء الدارسين حول المفهوم: «نستخلص من معالجات بعض هؤلاء المنظرين: أن التمثيل جاء لإحداث ثورة حقيقية في مفهوم السمة، وفي شرعية نسبتها إلى السيمائية وفي نظرية بيرس ودي سوير عن هذا المفهوم.  

يعني مفهوم التمثيل لدى كريستيفا - وهي التي أنشأتها في دلالته السيمائية - إنشاء اتقالا من أعمال يمسيف ودي سوير أيضا، وما أرادت تحقيقه من وراء بلورة هذا المفهوم - «إمكان إفلات السيمائية من قبضة قوانين الدلالة الملازمية للخطاب بما هو أنظمة للتبليغ، ثم إحداث حقول أخر للتمثيل. وذإن فقد وقع إعلان التحذير الأول ضد رحم السمة أو حاربتها "matrice du signe. كما أمسي من الضرورة بمكان مراجعة مفهوم السمة مراجعة نقدية، وكذلك كل المساعي السيمائية: تعريفها، وتطورها التاريخي، وصالحيتها في مختلف أصانع الإجراءات الدالية ومعها كل العلاقات».

في حين يرى ميشال أريفي أن المدلل يعني أن مفهوم "الحدث هو بصدق الوقوع، وأن العمل لما ينته فعلي، فالتمثيل يجب أن يكون مختلفا بطبيعة الحال عن الدلالة، وهي علاقة بسيطة للسلمة متبادلة بين وجه السمة».

وأما رولان بارت فيعالج هذا المفهوم من زوايا مختلفة، ويعمومه في مفاهيم أخرى سيمائية مثل النص النامي والنص الفيزيولوجي، والتحليل النصي، والمنتج والنتاجية. كما يتحدث عن الخلفيات التاريخية التي أفضت إلى إنشاء هذا المفهوم. ويظل هذا المفهوم محتاجا من النقد الجدد إلى كتابة جادة وأصيلة، ومستمرة ومتنوعة، وربما إلى ندوات نقدية متخصصة لإمكان الإفادة منه في تطور النظرة الوصينة إلى النص الأدبي فيما بعد الحداثة الفرنسية».
فأذا كان المفهوم الأصلي للمدلولية يتلائم مع بناء النص التام، أي مع النص الذي يتم بناءه بعناية غرضًا ما، ويتوفر من وسائله الذاتية ما هو كفيل بنقل ذلك المعنى بوضوح، فإن المفهوم الإجراطي يذهب إلى عكس ذلك حيث لا يكون العمل الأولي منتجًا جاهزًا أو نصًا تامًا، بل هو نص قيد الإكمال، بسأهام القارئ في إنتاجه بملورة الدلاليات الجديدة انطلاقًا من عالمه الخاص. فالدلولية إذن هي القدرة على إنتاج المعنى من دون توقف، وهي خصائص النصوص الأجنبية التي تسجس مجالاً للقارئ حتى يسهم في بناء معنى النص، كما تنسج المجال لتعدد القراءات، ولهذا السبب دعا رولان بارت إلى اعتبار النص إنتاجًا للمعنى لا منتجًا جاهزًا، وهو تعبير أمين عن تصور ريفاتير لأن هذا الأخير كان يقصد بالمدلولية إجراء بناء الدلالة في فعل القراءة وهو عمل في طور الإنجاز غير مكتمل.

من هنا تظهر المفارقة بين المفهومين الأصلي والنثدي للمصطلح الواحد، فبعدما كان يدل في الأصل على مجرد وجود المعنى، ويتضمن ذلك الوضوح والباشرة في نقل الدلالة أو الغرض، تحول إلى مفهوم القدرة على إنتاج معنى مختلفة باختلاف القراء، وهذا يقتضي غموض المعنى في النص المفروض.

كأنما يشبه هذا التحول الانطلاق من النقيض إلى النقيض في معطيات الدلالة، إلا أنه يحافظ على خيط رفيع من التوافق بين المفهومين الأصلي والإجراطي. ولعل هذا الاختلاف راجع إلى تنوع مقاربات النصية، ففي الحالة الأولي يشتمل النص كلا مكتملا يعضده نظام لغوي وغذيته معنى واحد ثابت لا يختلف عليه أصحاب اللغة، وفي الحالة الإجراطية يتمه اعتقاد نظرية القراءة التي ترى في النص كأنها غير مكتمل، لا يظهر إلى الوجود إلا بفعل القراءة.

هناك اختلاف في المفهوم نتج عنه تغير في المقاربة، بحيث تدرس اللسانيات ظاهرة المدلولية في محاولة لفهم وجود المعنى في الشكل اللغوي.
بينما يدرس النقد الظاهرة نفسها من أجل فهم آليات النص التي تضمن له إنتاج معان غير محدودة. وقد خضع هذا المفهوم الإجرائي للمدلولية، على خلاف المفهوم اللساني أو الأساسي، لمختلف الممارسات النقدية المرتكزة على الخصائص الشعرية. غير أن هذه الدراسة تركز على رؤية ميشال ريفاتير لهذه القضية بوصفه أول من درسها ونُشر لها في مقال: "الملولاية القصيدة: poem’s significance of 'poetry semiotics of the poem’s significance'.

المدلولية والشعرية:

تختلف لغة الشعر عن اللغة العادية حسب ريفاتير في طريقة التعبير: فهي مباشرة مرجعية في الحالة العادية، ومتوقفة في الشعر (القصيدة تقول شيئا وتمتد شيئا آخر). ولكني تكون اللغة الشعرية مراوغة وغير مباشرة توظف "الطريقة التنموية الدلالي" "semantic indirection"، لإزاحة الدلالة، أو تحريفها، أو خلقها: "تحدث الإزاحة عندما تنقل العلامة من دلالة إلى أخرى، عندما تقوم كلمة مثلاً أو مثلاً، كما يحدث في الاستعارة والكنية. والتحريف يكون إذا وجد الغموض، أو التناقض، أو الامعنى. ويكون الخلق عندما يمثل فضاء النص أساس تنظيم للعلامات بما يجعلها خارج مادتها اللغوية".34 والقاسم المشترك بين أوجه التنموية تهدف التمثيل الأدبي للواقع أي المحاكاة 'mimesis'

ويبدو أن هذه الفكرة الأولية عن الشعرية استغرقها الوصف البلاغي، فقد قابل عبد القاهر الجرجاني بين نمطين من الدلالات وما يميّز لغة العموم عن لغة الشعر في قوله: «الكلام على ضربين: ضرب أن تصل منه إلى الغرض بدلالات اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق وعلى
التفكير اللغوي في سيمياء الشعر عند ميشال ريفاتير

هذا القياس. وضريب آخر لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن بذلك اللفظ على معناه الذي يقتضي موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكثافة والاستعارة والتمثيل»، لكن ريفاتير يرى أن البلاغة تقتصر الطرق غير المباشرة في التعبر بعيدا عن مفهومي النص والقارئ، وأن مفهوم الشعر مرتبط عنه بمفهوم النص، فإن البلاغة عاجزة بمنهجها ومصطلحاتها عن مواقف التشكيل الحديث للأسماط الشعرية.

بضع تتمثل الواقع في الشعر للتشويه من خلال حالات اللاقواعدية (الخروج عن قواعد اللغة)، ولمما كان أساس المحاكاة هو التمثيل وأساس التمثيل مرجوية اللغة "referentiality" أي العلاقة المباشرة بين الكلمات والأشياء، فإن الوصول إلى مستوى المدلولية الشعرية يتطلب تجاوز حاجز المرجعي أو التمثيل أو المحاكاة، لا مناص من تجاوز حالات اللاقواعدية في النص للوصول إلى المستوى السيميائي: «بعد أن ميز ريفاتير بين الدلالة والتدليل (المدلولية) رأى أن القصيدة الشعرية يوجد فيها تعارض بين الدلالات المرجعية والدلالات السياقية، وهذا التعارض في حدد ذاته هو الذي يولد التدليل، ويصعب إنهاء مفعوله مهما تعددت القراءات للنص الواحد». على هذا ميز ريفاتير بين الدلالة والمدلولية يكون الأولى تمثل محتوى المحاكاة، أما المدلولية فهي الوحدة الشكلية والدلالية للقصيدة. إن الإجابة عن السؤال حول كيفية تنظيم النص وعن مدالينه تكمن عنده في مفهوم وحدة الأسلوب، وتظهر هذه الوحدة في الوجود المطرد للثنائية الضمنية القواعدية /اللاقواعدية في ثنايا العمل الأدبي. إن هذا الوجه الثاني هو الذي يغيي تركيب النص وتجعله قليل الوفاء للواقع، فاللاقواعدية هي التي تنتقل بنا من مستوى التمثيل إلى مستوى السيمياء 'sémiosis' وبالتالي نصل إلى مدلولية النص.
oneksi ترابط وثيق بين هذا التصور وبين نظرة ريفاتير إلى مسألة إنتاج المعنى في النص، لأن عملية الإنتاج هي سمة المدلولية، وهي لا تكون إلا من خلال حلول اللاقواعدية في لغة النص، بمعنى أن المدلولية تتحول إلى إدلال مستقل عن الحقيقة، دوال من دون مراجع في خبرة المتناق، كائنات لغوية خالصة: «إن أولى سمات اللاقواعدية هي من دون شك خاصيتها الغامضة: بالنظر إلى التشويش الذي يصيب مستوى التمثيل يكيل للقارئ أن النص — بما أنه لا يحل إلى شيء — يفقد معناه مؤقتاً». وعلى هذا فإن المدلولية هي مفهوم فني خالص لا يوجد له في اللغة العادية، لأنها تتولد من خلال الانزياح الذي يسمى اللغة الأدبية.

بهاذا تظهر الميزة الأساسية للغة الشعرية على اللغة العادية؛ فهي تعبير غير مباشر يتضمن جملة من حالات اللاقواعدية، أي أنماط تعبير غير مألوفة أو خارجة عن النظام اللغوي المعروف، وهي حالات ضرورية لبناء لغة خلاقة ونص مولد لدلالات غير محدودة. ومع وجود هذه الحالات اللاقواعدية، فإنها في الواقع تمثل متغيرات ثابتة واحد يضمن انسجامها في بناء النص: «بالنسبة لميشال ريفاتير يبني النص الشعرى في سبيل تكرار ثابت واحد تحت متغيرات مختلفة، هذا الثابت هو النواة الدلائية للنص والتي يدعوها ريفاتير الهيبوغرام "Hypogramme". هذه النواة الرحمية التي تحدد وتفعل كتابة القصيدة تشكل دليلاً مهما لفهم العمل الأدبي». ثم يستورد يوهان برودوم ونيلسون غيلبرت في وصف الآلية التي تولد المدلولية من خلال المخطط التالي.
يظهر النص على أنه سلسلة من علامات تمثل متغيرات ثابتة واحدة، وهي
في ذات الوقت سلسلة من حالات اللواقعية التي لا بد من تجاوزها للوصول
إلى الأفق السيميائي.

تجاوز الواقعية يعني تجاوز المرجعيّة:

كمثال على دور الواقعية في بناء اللغة الشعرية وكيفية تجاوزها يعرض
ريفاتير في تحليله لأبيات بول إلوارد 'Paul Elward' للبحث عن انسجام
منطقي بين المضامين القضية للأبيات، في سبيل تفسير وحدة النص من
 خلال النواة الرحمية، والتي تضمن تشاكل الخطاب في المقطع الشعري
بمساعدة مكون داللي مشترك بين البيتين: /لا شيء/.

من كل ما قلتته عن نفسي مادا بقي؟

خبأت كنزًا مثيرًا في خزانات فارغة

من أجل تجاوز النافذ من مستوى المحاكاة كيف تخبأ الكنز في
خزانات فارغة؟ يفترض أن النص ليس مرجعيًا، أي أنه لا يعبر عن الواقع
بطرق مباشرة حيث يقول: "النص ليس مرجعيًا "referential": النافذ من
موجود فقط في المحاكاة. العبارات في السؤال هي متغيرات كلمة مفتاح
الإجابة فهي ترد "لا شيء". هي ثابت في بيان مسهم من الاسترشاد كل هذه
الأشياء تؤول إلى الصفر، وبوصفها العنصر الثابت فهي تحمل مدلولية
التغير". أي أن هناك واسما مشتركا خفيا بين أبيات القصيدة هو /لا شيء/.

243
والوصول إلى مدلولية النص يقتضي معرفة هذا الواسم من خلال تجاوز مستوى المحاكاة أو المرجعية.

فالسيمياء تتم بدراسة الانتقال من المستوى الأدنى للنص المشكل من سلسلة علامات لا قواعدية إلى المستوى الأعلى حيث يتحول النص إلى علامة واحدة وهو مستوى المدلولية: «لا يسعنا أن نفهم السيمبيوز حتى نتحقق من إدراك النص الحالي على أنه علامة واحدة تشمل على بنيّة (علامة مركبة شكليّا ولكن واحدة الدلالة monosemic)».141 والإجراء السيميائي متصل بمفهوم القراءة، وهو يمر بمرحلتين من هذه القراءة: أولها قراءة استرشادية من بداية النص إلى نهايته، يتم فيها فهم الدلالة من خلال آلية المرجعية أو المحاكاة، وتساعد المعرفة اللغوية والثقافية القرائيّة على إدراك حالات اللاقواعدية أو مواضع الخروج عن النظام في ثنايا النص. ثانياً قراءة راجعة تقوم على مراجعة النص وتغيير ما تمّ فهمه في المرحلة الأولى: «المقولات المتتابعة والمختلفة الملاحظة أولا على أنها مجرد حالات لا قواعدية هي في الحقيقة متناقية، حيث تظهر الآن على أنها متغيرة للنسج البنوي ذاته. النص هو تغير أو تحوير لبنيّة موضوعية واحدة رمزية أو أي كان، وهذه العلاقة الثابتة لبنيّة واحدة تشكل المدلولية».42

من أجل الوصول إلى المدلولية إذن لا بد من تجاوز حاجز المحاكاة وإدراك تشكّل الخطاب: «لاكشاف المدلولية في الأخير، يستوجب على القارئ تجاوز حاجز المحاكاة: في الحقيقة هذا الحاجز ضروري لتفعيل عقل القارئ»43 فالوصول إلى مدلولية النص يتوج بتحديد الأجزاء المختلفة تتضمن تغيير عقل القارئ، وأهمّ أوجه التغيير إدراك لمرجعية النص أو مفارقاته لواقع بحيث يتجاوز القارئ معرفته الشخصيّة المألوفة عن العالم ليبرز حقائق غير
التفكير اللغوي في سيمياء الشعر عند ميشال ريفاتير

ماطلوبة من عالم النص، إن الغموض الذي يغيّر العقل هو حافز الوصول إلى المدلولية الإجرائية بعدما كان عاماً معاقسا للمدلولية الأولى.

قد وسع ريفاتير بطريقة غير مباشرة التفسير البلاغي للإدعا من الجملة إلى النص، كما استشر مفهوم التشاكل في علوم النص، مع شيء من التجوز في قواعد الربط، فقدما أن الصورة البلاغية لا تدرك إلا بمعارة الروابط بين المشتبه والمشبه به في الصورة البلاغية بعد معرفة عدم مقبوليتها أو لا قواعديتها، فكذلك تتضمن المدلولية إدراك الروابط الخفية بين علامات النص لفهم وحدهته ولا يكون ذلك إلا بتجاوز حالات اللاعقلية في النص.

8 رمان جاكسون: ست محاضرات في الصوت والمعنى. ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح. المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1994، ص 146.
9 المرجع نفسه ص 19.
آرت فان زويست: التأويل والعلمانية. من كتاب (العلمانية وعلم النص). ترجمة منذر عياشي. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى: 2004، ص 43.

أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، 2006، ج 1 ص 44.

13 Ibid p 104.

16 عنصر النصية هي الخصائص التي يلزم توفرها في الشكل اللغوي ليكون نصاً وهم: الانساق والانسجام، والمتقابلا، والقصيدة، والإعلامية، والمفهولية، والتعانض.


20 الحرجاني: دلال الإعجاز. تحقيق محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة: 2004. ص 64. المراجع نفسه ص 49.
21 عبد الله حمادي: لوازم الحداثة والمعاصرة للقصيدة العمودية. (مجلة الثقافة والثورة).

22 ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ع 10: س 1983، ص 59.
23 عبد القاهر الحرجاني: المرجع نفسه. ص 81.

27 Pierre Frath : Sémantique, référence et acquisition automatique de connaissances à partir de textes. p 100.
31 عمرو مرياش: بلاد العجائب (مجلة الضاد). معهد الآداب واللغة العربية جامعة قسنطينة، دار الشهاب باتنة، الجزائر، العددان 10 و11، ص 131.
32 عبد المالك مرتاض: نظرية النص الأدبي. دار هومه، الجزائر، 2007، ص 356.
33 المرجع نفسه ص 364 / 365.
35 عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص 262.
38 Ibid.
39 Ibid.
41 Ibid p 11.
42 Ibid p 6.